"صارخٌ في البرِّية"

شفيق حبيب : شاعرٌ يؤمنُ بالكلمة قبل أن "يصرخَ بها"

الناقد / نبيل عودة

بعد صدور ديوان " صارخٌ في البرِّية " للشاعر شفيق حبيب، وجدتها مناسبةً لأحققَ ما يراودني منذ فترة طويلة، وبإلحاح، أن أكتبَ عن أعمال الشاعر الذي يتواصلُ حضورُه ونكهته الشعرية المميزة منذ أكثر من أربعة عقود.. وعبر ١٤ ديوانًا شعريًا.

ورغم هذا الزخم من الإنتاج والحضور الأدبي النشيط والمتواصل إلا أن شفيق حبيب مثل الكثير من المبدعين الجادّين لم يُسَوَّق إعلاميًا، وبقي شاعرًا "غير لامع" وربما لهذا السبب ألحّ عليَّ دافعُ الكتابة عن شفيق حبيب ويبدو أني أفعل ذلك تمشيًّا مع حديث تراثي لا أذكر قائله جاء فيه : "أفضلُ الجهاد كلمةُ حقٍّ عندَ سلطانٍ جائر"، وشفيق حبيب يُعطيني شعورًا أنه لا يكتب بالقلم إنما بأظافره، ولا يردعُه أنّ لوحةَ الكتابةِ من الصخر أحيانًا، ورغم أصابعه الدامية يواصلُ نقشَ كلماته بإصرارٍ وصدقٍ وتصميم وإيمانٍ بكلّ كلمة.

يا أبا ذرٍّ تقدَمْ !!!

وازرعِ الثورةَ ضوءاً

في القلوب المُعْتِمَه

كما جاء في قصيدته " أبو ذر الغفاري والعولمة " ويشرح دعوته لأبي ذر :

نحن شعبٌ...

صادرٌ الجهلُ فمَه

عُد إلينا يا أبا ذرّ !!

وقدِّمْنا لسيف المحكمة...

من الخطأ رؤيةُ هذا الألمِ الذي يمتزجُ بكلمات هذه القصيدة كانهزاميّةٍ وتشاؤمٍ واستسلام، إنما استنفارٌ، لأنقى ما في تاريخ الفقراء الشرفاء ضحايا الاستبداد منذ قديم الزمان وصولاً للعولمة، بأن يجيءَ زعيمُهم أبو ذر شاهرًا سيفه لأننا :

نحن لسنا في رحابِ العولمة

إنما نحيا عصوراً مظلمة

هذه الروح الشعرية المتوثبة، نلقاها تمتد على مساحة معظم قصائده الوطنية، بل وحتى في المقاطع الغزلية من شِعره.

في قصيدته "لنا مَوْعِدٌ" يقودنا عبرَ المأساة والحزن إلى باب الأمل والمستقبل أحيانًا، يُشعِرُكَ أنه يبكي بيأس، غير أن بكاءَهُ أو يأسَه هو المخاضُ الذي لا بدّ منه لكي يولدَ المستقبل / الحلم...

على أرض هذا الوطنْ..

لعِبنا صغارًا هربنا كبارً..

ودارت بنا دائراتُ المِحَنْ...

وينهي قصيدته بإصرار المقاتلين :

سنشربُ من بحرِ غزَّةَ

وحْلاً... وذلاّ...

وخلاّ...

ونحيا على ناضرات الدّمنْ..

لنا موعدٌ يا مخاضَ السنين !!

فمولودُنا...

دولةٌ من شجن.

الشاعر شفيق حبيب يبني هذه القصيدة بحذر، وأكادُ أقولُ بإحكام، مبتعِدًا عن كل ما يمسُّ تدفقَ المعنى، ومميزات قصيدتِه هذه أنك تتحمّسُ لتعيد قراءتها.

على أرضِ هذا الوطنْ

لعِبنا صِغارًا

هربنا كِبارًا

بكلمات قليلة وبسيطة، يُدخلك شفيق حبيب بجوّ المأساة، وتعبير "هربنا كبارًا" فيه سخريةٌ ونقدٌ ذاتي عنيف، بل دامٍ، لروح الاستسلام والضَّعف والوهن في الدفاع عن الحق.. وأي حق ؟؟ الحقّ في الوطن والأرض والبيت، الحقّ أن نكون شعبًا له تاريخٌ وحاضرٌ ومستقبل، وبمفهوم آخر ألحقُّ في أن نكونَ بشرًا....

الملاحظ أن الشاعر شفيق حبيب هو شاعرُ الكلمة الغاضبة، وقد يميلُ البعضُ لتسمية ذلك بشاعر الكلمة الثائرة، وأنا عن قصدٍ ابتعدتُ عن استعمالِ صياغاتٍ مثل شاعر الغضب أو شاعر الثورة، حتى لا أدخل في مبالغات فكرية، وحتى أحافظ على دلالات الكلام بحدودها الواقعية، ولأن الغضبَ عند شفيق حبيب هو غضبٌ على الواقع المُعرَّف، وليس غضبًا بلا حدود، فنجده في غزلياته رائقًا مسحورًا ولهذا ترقصُ كلماته بجذل :

مـــا زلـــتُ مُـــرتحلاً في شـــهقةِ العســـلِ

والليـــلُ يجمعنـــا بحـــرًا مـــن الغـــزلِ

تـــأتين عِشـــقًا وفي عينيـــكِ أغنيـــةٌ

أشـــهى مـــن الـــوردِ والأطيـــابِ والقبَـــلِ

من هنا غضبُ الشاعر شفيق حبيب هو غضبٌ له عنوانٌ واضح، وهو غضبٌ ينطلقُ من رؤيةٍ واعيةٍ لحقيقةِ الواقع، ويهدفُ إلى استنفار قوى الخير للعمل على تغيير الواقع، فنجدُه مرة يستنجد بأبي ذر الغفاري، ومرة يستنجد بأجداده في نجران وتاريخِه الأصيل.. (قصيدة "آهِ لو عدتُ") وحتى لا يخطئ أحدٌ في حنين الشاعر لأجداده في نجران يقول :

إنَّ في نجرانَ أجدادي...

وتاريخي الأصيلْ...

ولساني عربيّ

جاءَ من ينبوع قرآنٍ جليلْ

الشاعر شفيق حبيب يثبتُ في شعره أن للكلمة دورًا أكبرَ من مجرّد أن تشكلَ لبنةً في مبنى القصيدة..

للكلمة مسؤولية، وهو من رعيل الأدباء الذين لم يُسَوِّقوا أنفسهم بل " سوَّقهم أدبُهم " إذا صحّ هذا التعبير...

ويجيئني هنا قولُ الخليفة عمر بن عبد العزيز : " إن هذه الأمةَ لم تختلفْ في ربِّها ولا في كتابها، وإنما اختلفت في الدّينار والدّرهم ". ومن هذه الزاوية أفهم قصيدته "انكساراتٌ حادّة" التي يُهديها "إلى مدّعي المسؤولية الذين ينكرون على الشعر صوته في مناسباتنا الوطنية وإلى الشعراء الزاحفين على بطونهم كالأفاعي" فيقول :

كان صوتُ الشعر أسمى آيةٍ

في سِفرِ آيات النضالْ..

ألهبَ الجمهورَ في يوم التصدّي والنزالْ..

وأخافَ الحاكمَ المأفونَ...

ثم ينتقد الذين "استكانوا كالسِّخال" ويقول :

أصبح الشعرُ شعيرًا

بين أسنان البغالْ..

إلى أن يُلقي صرخته ورؤيته :

يا جراحي..!!

يا جراحات الوطنْ..!!

أصْلبُ القاماتِ عودًا..

قامةٌ طهَّرَها جمرُ المِحنْ...

ومع ذلك على غير العادة، نهاية القصيدة فيها من المرارة ما يُقرّبها من الانهزامية، ولكنها تبدو في النغمة العامّة ككبوة همام، ينطلق بعدها إلى أين ؟؟ :

آهِ يا شبّاكَ هذا العمرِ

يعلوكَ الغبارْ

جفتِ الأزهارُ والأنهارُ

فالأرضُ يبابٌ واحتضارْ..

وينهي قصيدتهُ :

باتَ للسُّمارِ والأوتارِ والأحرارِ

في البالِ

حكايا.. ومرايا.. وشظايا...

ومشاريعُ انتحارْ...

وفي الحقيقة طرحتُ على نفسي سؤالاً : لماذا نفهم الانتحار كانهزامٍ وليس كقمّةٍ في البطولة ؟؟

ولكن ما أرجوه ألا يكون موقفُ الشاعر شفيق حبيب هنا مثلَ ذلك المتصوِّف الذي لم يكن يستجيبُ للدعوات على الطعام، وعندما سُئِلَ عن السبب قال : " انتظارُ المرق ذلّ " بمعنى أن انتظار الفجر الجديد مأساويّ لدرجة شديدة القسوة تدفع المناضل للانتحار...

شفيق حبيب في لغتهِ الشعريةِ لا يميلُ للرمزيّةِ المركبة...جُمَلهُ واضحة، ويرى بالشعر سلاحًا ثقافيًا ليس للحماسة فقط، إنما للتوجيه بوعيٍ ومسؤولية، وقصائدُه قريبة للحياة اليوميّة بصعودها وهبوطها، وبالصراع بين الخير والشر... وفي كل الصّياغات والأساليب الشعرية، نجدُه يحافظُ على موسيقى شعرية تعطي لكلماته أبعادًا حماسية.

ويبدو أن قناعاتِ الشاعر شفيق حبيب ورؤيتهُ لمهمةِ الشعر ودورهُ النضاليّ في الظروف العينية التي يحياها شعبُنا تدفعُه أكثرَ للشعر المهرجانيّ.. وأعني الشعرَ النضاليّ الذي يتناسب والمهرجانات والمسيرات السياسية، ولكن يبدو أن البعضَ لم يعودوا بحاجةٍ إلى هذا السلاح أو يرتعبون من ارتفاعِ شأن قصائدَ شعريةٍ نضالية على "تمثيلياتهم" الوطنية ويريدون أن تبقى سطوتهم على كل الأسماء الشعرية..
"فمَنْ مَلكَ استبدّ" كما جاء في نهج البلاغة ومع ذلك، كما يقول أبو ذر الغفاري : "يخضمون ونقضم.. والموعدُ لله..."

جريدة "العين" النصراوية

١٢-١٠-٢٠٠١